أدوات التعريب المواكب ووسائله من منظور وحدوي

بقلم: الدكتور عفيف دمشقية

مقدمـــــة

لما كان كل انسان ينتمي بحكم ولادته وقدره المرسوم الى لغة من اللغات ، وكانت هذه اللغة هى التى ستطبع افكاره وعواطفه مدى حياته ، فانها هى التى ستتيح له بالتالى ان يتواصل ويتفاهم مع اناس آخرين يشكلون معه المجتمع اللغوى الخاص بهم . ذلك ان اللغة فى اى مجتمع لغوى تمثل « راموزا » فى مكنة كل فرد من افراد هذا المجتمع فك رموزه وفهم دلالاتها تبعا لنوع من « عقد اجتماعى » لا يدرى متى وكيف تم عقده . كما ان الآصرة التى تشد هؤلاء الافراد بعضهم الى بعض تتمثل فى امتلاكهم جميعا امكانات التعبير ذاتها ، وفى أن ما يستخدمه الفرد الواحد وسائر افراد المجموعة من كلام يوقظ فى اذهان كل الاطراف الاصداء عينها .

و « المجتمع اللغوى » اهم اشكال المجتمعات لانه يشرع الابواب لبلوغ مضامير الفكر والثقافة ، ويقلدنا مفاتيح الممتلكات الفكرية المستودعة فى الاعمال المكتوبة . ومهما تعددت صيغ المجتمع بتعدد العوامل العرقية او السياسية او المذهبية ، فان العامل اللغوى يبقى انجع الوسائل واكدها لخلق المجتمع المتماسك الذى يحس فيه كل فرد بالانتماء والولاء بشكل عفوى، وبلا دافع من منفعة او مصلحة . ذلك لان « المجتمع اللغوى » اقدم اشكال المجتمعات واشدها اصالة وعراقة . وكما قال غونترايسن فان : « اللغة روح المجتمع الحقيقية ، وهى التى تؤلف عالما قائما بذاته ومحققا وجوده على هذا الاساس . فالمجتمع هو « نحن » التى تعى ذاتها فى اللغة وبها تتواصل » (1)

وللباحث ان يزعم ان الامة العربية تؤلف من المحيط الى الخليج ، مجتمعا لغويا قائما بذاته ، اذا اخذ فى الاعتبار ان اساس اللحمة فى هذا المجتمع هو العربية النموذجية المشتركة (الفصحى) التى هى « الراموز » المشار اليه اعلاه . لكن فى مقدوره كذلك الادعاء بان هناك « مجتمعات لغوية عربية » لا مجتمعا واحدا ، بالنظر الى شتى « اللهجات » المستخدمة فى اقطار الوطن العربى ، لا لان هذه اللهجات لا تمت الى « الراموز » المشترك بسبب ، وانما لان الرموز المستخدمة فى كل قطر تتنوع وتختلف تبعا لعوامل اهمها :

أ ـــ المفاضلة النابعة عن ذوق خاص بين مفردة

واخرى للتعبير عن الامر الواحد ، كما هى الحال فى « الوقت » و « الحين » و « الساعة » للدلالة على اللحظة الراهنة .

2 ـــ التحريف الصياغى او الصوتى اللاحق بالمفردات تبعا لقانون الاختصار الناتج عن الرغبة فى اختزال الزمن من جهة ، وتمشيا مع « الجهد الاقل » من جهة اخرى ، او تبعا لقانون تعاقب الحروف وتبادلها ، كما فى مختلف العبارات المستعملة للدلالة على اللحظة الراهنة : « هلق » (بنطق القاف قافا حينا ، وهمزة حينا آخر) ، و « هلقيت » ، و « دلوقت » (بنطق القاف قافا حينا ، وجيما قاهرية مع مدها مدة كسر حينا آخر) ، و « الحين » ، و « هسّة » (بالوقف على التاء المربوطة هاء) ، او « إسّه » (بقلب الهاء همزة ولفظ التاء المربوطة ياء ممالة) .. الخ .

3 ـــ استخدام المفردات المستعارة او الدخيلة من اللغات التى قدر للعرب فى شتى اقطارهم الاحتكاك بها قديما او حديثا كالفارسية ، والتركية ، والايطالية، والفرنسية ، والانكليزية ، والتى شاعت فى الاستعمال للدلالة على المدلول الواحد ، ك « الطاولة » ، و « التربيزة » ، و « الميز » ، و « السكملة » الخ .. لتسمية المنضدة او المائدة .

واذا كان من غير المستطاع الوقوف فى وجه « اللهجات » ، لان ذلك من قبيل السباحة عكس التيار ، او محاولة القضاء ـــ وهى محاولة يائسة ان لم تكن مستحيلة ـــ على طبيعة الاشياء ، فلا اقل من العمل الدائب والسعى المتواصل لتنشيط « الراموز » المشترك تسهيلا لتواصل افراد الامة العربية فيما بينهم ، وشحذ احساسهم بالانتماء والولاء لمجتمع لغوى واحد ، لانه امتن اشكال المجتمعات كما راينا آنفا . ولعل من بين الوسائل والادوات الغائبة عن « التعريب ليصبح مواكبا لمتطلبات العصر والدور الذى يمكن أن يؤديه فى دعم الوحدة العربية » :

اولا : ادب الاطفال والفتيان :

درجت الامم الراقية على اعارة اطفالها وفتيانها ابلغ الاهتمام لانهم عماد الامة والدم الكفيل بتجديد حياتها الى مالا نهاية . وكان لظهور علم النفس بعامة، وعلم نفس الطفل بخاصة ، اثره الكبير فى توجيه انظار الكتاب والشعراء الى ضرورة التنبه لـ « الكائن الصغير » والكتابة عنه وله ، لما للادب والمطالعة من اهمية فى نموه العقلى والخلقى والانفعالى والابداعى والاجتماعى .

وكان طبيعيا أن يطلع العرب فى نهضتهم الجديدة على منجزات تلك الامم فى عالم الطفولة ، وان يحاولوا اقتفاء خطاها فى هذه السبيل ، وان يظهر فى بعض اقطار العروبة « ادب اطفال » يتفاوت فى جودته تفاوتا شديدا لغلبة التصنع عليه حينا ، وسيطرة اسلوب الراشدين ولغتهم والفاظهم احيانا .

واذ كانت الطفولة العربية تحتاج منا الى اعداد قويم يؤهلها لدخول عالم الراشدين ، ويهيئها لرسم مستقبل الامة التى تنتمى اليها ، فقد كان لزاما علينا ، نحن المتطلعين الى رص صفوف هذه الامة بكل ما من شأنه ترسيخ وحدتها القومية ، أن نبذل الغالى والرخيص لفهم طبيعة الناشئة ، ومراحل نموها ، والبيئة التى تعيش وتترعرع فيها ، توصلا الى خلق أدب يساعدها على النضج من ناحية ، وعلى تعميق شعورها بالانتماء والولاء للعروبة من ناحية ثانية . ويقودنا هذا الى جملة امور لعل اكثرها الحاحا الامور التالية :

1 ـــ ان تردف جهود المهتمين اهتماما صادقا (بعيدا عن التطلع الى اى كسب او منفعة تجارية) بأدب الاطفال فى الوطن العربى بجهود خيرة أخرى هدفها القضاء على « تجار أدب الطفولة » الذين لا همّ لهم سوى تحويل هذه الطفولة الى « بقرة حلوب ». ولعمرى فان اقوم السبل لتوفير مثل هذا المناخ الصحى لعالم الطفولة العربية هو خلق فريق عمل من المربين الافاضل الذين وجدوا فردوسهم المفقود فى هذا العالم الساحر العجيب ، واكتسبوا الكثير من الدراية بشؤونه ، والمعرفة بتطلعات الناشئة ، والخبرة بقواميسها اللغوية ، ومن علماء نفس الطفل الذين وقفوا على اسرار حياته وعالمه نظريا وعمليا ، وباتوا قادرين على توفير أطيب الاجواء الصحية له نفسانيا وعقليا ومسلكيا ، ومن علماء الاجتماع الذين درسوا مجتمع الاطفال دراسة ميدانية الى جانب دراسته الدراسة النظرية ، اهلهم علمهم وخبرتهم لتحديد افضل نماذجه من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، ومن القصاص الذين مارسوا الكتابة للاطفال والفتيان ، وزودتهم ممارستهم بالقدرة على اجتذابهم الى نتاجهم وتثقيفهم الثقافة التى تعدهم لمواجهة المستقبل مسلحين بكل ما يحتاجون اليه من وعي لادراك

مشكلاتهم الانسانية والاجتماعية والقومية والسبل الآيلة الى معالجتها وحلها ، ومن اللغويين — ولا سيما المهتمين بلغة الطفل — العارفين بخصائص العربية واسرارها ، القادرين على امداد حوافظ الناشئة بأصفى أساليب التعبير ، واكثرها قدرة على صوغ الفكر ، وأبعدها عن متاهات التحذلق والتانق الفارغ، العاملين بصدق على تضييق الشقة بين الفصحى الشاملة ارجاء الوطن العربي ، والعاميات المحلية المحدودة الرقعة ، بتفصيح أساليب هذه الاخيرة ، وتبسيط أساليب الاولى بشكل علمي دقيق يأخذ في الحسبان كل العوامل المساعدة على الصعيدين النفساني والاجتماعي .

2 — لما كان العرب يتطلعون الى جمع شملهم وتوحيد كلمتهم فان اول المعالم على طريق الوحدة هو تنشئة اطفالهم على هذا الامر القومي الخطير . ولا بد لبلوغ هذا الهدف من الخروج بالناشئة العربية من حدود وطنها الاصغر (القطر ، بل الجزء من القطر) الى رحاب الوطن الاكبر من المحيط الى الخليج. ولا يمكن أن يتم لنا ذلك الا بتعريفها بهذا الوطن من اقصاه الى اقصاه ، جغرافيا ، مع التركيز على دور المؤثرات المناخية في التباين بالزي والمسكن وبعض التقاليد والعادات ، وعلى الموارد الاقتصادية المختلفة باختلاف المناطق العربية ، ودور هذه الموارد في نمو الوطن العربي وازدهاره اذا احسن العرب استغلالها بانفسهم واقتسام خيراتها فيما بينهم ، وبشريا ، مع الالحاح على الشيم والمناقب التي تـؤلف القواسم المشتركة بين أبناء العروبة كافة ، وتراثا شعبيا ، مع بيان نقاط التلاقي العائدة الى اشتراك العرب في بعض هذا التراث ، ونقاط التباين الناجمة عن المؤثرات البيئية البحت .

3 — يقرر علماء النفس ان من تراوح اعمارهم بين الثامنة والثالثة عشرة مولعون بالمغامرة والبطولة. وهكذا يتيح المجال رحبا امام الفريق الساعي الى اسعاد الطفولة العربية وتوثيق عرى الوحدة بين افرادها لبلوغ الوحدة الكبرى والاستمرار في تعزيزها حين يشبون عن الطوق ، لان يعرفوهم بأبطالهم القوميين ، وبمشاهير رجال العروبة ونسائها قديما وحديثا ، بوصفهم « أجدادا » عربا ، لا تبعا لانتمائهم الى احد اقطار العروبة او الى احد اقاليم الوطن العربي . ولا ندعي ان هذا الاتجاه جديد على الامة العربية ، فأكثر الاطفال والفتيان العرب تعرفوا ، عبر الكتب المقررة للتدريس ، الى ابطال وبطلات عظام من التاريخ العربي واحلوهم من نفوسهم منزلة الاكبار والاعتزاز ، فباتوا جزءا لا يتجزأ منهم . والذى نتطلع اليه اليوم هو ان يحل الى جانب اولئك ابطال وبطلات من التاريخ العربي الحديث ، فلا يكون أمثال عمر المختار ، وجميلة بوحيرد ، وجميلة بوباشا ، ابطالا من « المغرب العربي » ، ولا سعد زغلول ، واحمد عرابي ، وجمال عبد الناصر ، ابطالا من « مصر » ولا يوسف العظمة ، وابراهيم هنانو ، وجول جمال ، ابطالا من « سوريا » ، ولا طانيوس شاهين ، وعمر حمد ، وكمال جنبلاط ، ابطالا من « لبنان » ، ولا حسن سلامة ، وبسام الشكعة ، ودلال المغربي ، ابطالا من « فلسطين » ، ولا ... ولا ... ولا .. ، وانما يغدو هؤلاء وغيرهم من افذاذ الامة العربية رجالا ونساء ، ملكا للامة جمعاء ، يعرفهم اطفالها ، قاصيهم ودانيهم ، ويعايشونهم ، ويفخرون بهم ويتفاخرون ، ويحتذون خطاهم في الجهاد والتضحية والفداء والشهادة لاعلاء شأن الامة بأسرها .

4 — انه لما كانت اشكال البيئة العربية متعددة، فقد كان من الطبيعي ان تعدد الاسماء بتعدد المسميات، كما انه لما كانت الاقطار العربية قد عرفت تاثيرات وتداخلات لغوية مختلفة ، بفعل الجوار والتبادل التجاري ، او بفعل الانتداب والاستعمار ، فقد اصبح للمسمى الواحد اسماء تختلف من قطر الى آخر . ومن شأن ذلك بالطبع ان يخل بنظام « الراموز » المشترك، وان يـؤدي بالتالي الى انقطاع التواصل بين ابناء العروبة في اكثر الاحيان اذا لجأ كل منهم الى راموزه المحلي . فالمعروف ان التواصل لا يمكن أن يتم بين شخصين الا اذا كانا متفقين سلفا على العلاقة القائمة بين الدال والمدلول عليه ، والمتمثلة في « الراموز » المتواضع عليه منهما . كما انه من بديهيات الامور ان يستحيل ارتسام صورة منضدة مثلا في مخيلة طفل عربي من لبنان اذا سمع طفلا عربيا من مصر يقول « ترييزة » ، وآخر من العراق او الخليج يقول « ميز » ، لانه لا يعرفها الا باسمها المألوف في قطره : « طاولة » . وأن يستحيل تصور « البطيخة » مثلا اذا سميت « دلاحة » كما يطلق عليها في معظم اقطار المغرب العربي ، او « رقية » (بتحويل القاف الى جيم قاهرية) ، كما تسمى في العراق وبعض بلدان الخليج العربي .

ولا شك ان تعريف الاطفال العرب بمختلف

اشكال البيئة فى الوطن العربى الاكبر ، والحرص على اختيار ابسط المفردات وانصحها . لهذا التعريف وما يتفرع عنه من تعريفات بمحتويات كل بيئة ، عن طريق ربط الاشياء باسمائها فى اللغة النموذجية المشتركة ، من شأنه أن ينتقل بدلالة الاسماء على المسميات من نطاق « الخاص » — اى المحلى والاقليمى الذى سيبقى قائما بطبيعة الحال تبعا لمنطق الامور — الى رحاب « المشترك » الذى سيؤلف فيما بعد « الراموز » الشامل المساعد على تسهيل التواصل بين أبناء الامة قاطبة ، والقضاء من ثم على الحواجز اللغوية التى يحس معها العربى ، طفلا ، او يافعا ، او راشدا ، بالغربة تجاه شقيقه العربى اذا ما لجأ كل منهما الى راموزه وقاموسه المحليين .

5 — على العاملين فى سبيل اعداد الناشئة العربية اعدادا وحدويا الا يقصروا جهودهم وبحوثهم على الادب المكتوب ؛ من قصص ومجلات وموسوعات ورسوم مرفقة بالكلام ، بل عليهم ان يتجاوزوا ذلك الى كل ما افرزته التكنولوجيا الحديثة فى حقل الوسائل السمعية — البصرية ، من شرائح تعكس على شاشة خاصة ويعلق على ما تقدمه من مشاهد وصور ، واسطوانات واشرطة مسجل عليها الاغانى والاناشيد ، واخرى باشرطة « الفيديو » .. الخ . ولقد كنا فى لبنان نحفظ ونحن صغار ، كما كان يحفظ اترابنا فى سوريا وفلسطين ، اناشيد طالما نفحتنا بعزة قومية اصيلة ، لعل اشدها توافقا مع المقام الذى نحن فيه الآن نشيد مطلعه :

بلاد العرب اوطانى
من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن
الى مصر فتطوان
فلا حد يباعدنا
ولا دين يفرقنا
لسان الضاد يجمعنا
بغسان وعدنان .. الخ

وذلك فى زمن لم تكن فيه التكنولوجيا قد بلغت ما بلغت ، فكيف باطفالنا اليوم — والوسائل التى ذكرناها كثيرة ؛ ونعمها جليلة — اذا عممنا عليهم مثل هذه الاناشيد ، وغيرها من صنوف الابداع الفنى ؛ مداميك اولى فى صرح الوحدة الكبرى ؟

6 — التعليم شرط اساسى لاقبال الطفل على المطالعة والاستفادة من مختلف وسائل المعرفة . وهو الى جانب رفع مستواه الفكرى يقرب تعبيره درجات من مستوى التعبير الفصيح . وعلى العاملين فى سبيل التعريب وشد أواصر العروبة وتوحيد ابنائها الا يدعوا وسيلة لاقناع اولى الشأن فى كل جزء من اجزاء الوطن العربى بضرورة تعميم التعليم وفرضه حتى المرحلة المتوسطة (الاعدادية) على اقل تقدير . فلا يعقل ان يرسخ الشعور بالانتماء الى الوطن الاكبر والولاء له الا اذا تعهدناه منذ نعومة الاظفار . ولا يكون هذا التعهد الا بالتعليم والتربية . ولعل تشرذم ابناء العروبة ما كان ليحدث لو لم تستمت قوى التسلط الغريبة فى تجهيلهم ، بسلبهم حقا من اقدس حقوق الانسان ، حق التعلم ، وتشجيع اللهجات المحلية ، علاوة على المحاولات الباغية لسرقة اللسان العربى من ابنائه فى بعض اجزاء الوطن (2) .

ثانيا — الاعلام العربى :

بات الاعلام بشتى فروعه كما هو معروف من اقوى الدعائم لتشكيل الفكر القومى ، وتعميق الشعور بالولاء للامة والوطن ، الى جانب انه من اهم العوامل على نشر الثقافة والمعرفة . ووسيلة من وسائل التسلية البريئة ونشدان راحة النفس والاعصاب من عناء العمل وظروف الحياة الحديثة . ويشمل هذا الاعلام ، كما هو سائد ، الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح ، الى جانب الصحافة . ولا تشكل هذه الاخيرة بالنسبة الى الوحدة الثقافية واللغوية عقبة تذكر ، لاختيارها اللغة النموذجية المشتركة ، مع تباين طفيف فى بعض الصيغ والعبارات من قطر الى آخر ، ولاعتمادها ، منذ اطلالتها على الوطن العربى مع فجر النهضة الحديثة . اسهل الاساليب واقربها الى متناول اعرض الجماهير العربية . كما ان الاذاعات العربية تواضعت على اخراج معظم برامجها بالفصحى المتداولة اليوم بين الناس ، اى اللغة التى يمكن ان يطلق عليها بحق اسم « العربية المعاصرة » والتى اثبتت قدرتها على الاستجابة لمطالب العصر ، وطواعيتها فى تلبية كل ابداع مستجد . ولا يحق لاحد بالطبع ان يطالب هذه الاذاعات بالتخلى عن بعض برامجها المذاعة باللهجة المحكية المحلية ، لان مثل هذه المطالبة تعنى القضاء على الازجال والاغانى والاهازيج الشعبية ، وعلى صور من الفلكلور لا يجوز طمسها بحال من الاحوال ، بل يجب على العكس

تشجيعها وتنشيطها ، شريطة عدم طغيانها على سائر أشكال النتاج الفكرى العربى .

وجل ما يطالب به الاذاعيون العرب فى هـذا المقام أن تتضافر جهودهم لانتاج برامج تصور بعض جوانب الحياة فى شتى اقطار العروبة ، والوانا من الفلكلور المحلى ، بلغة فصحى سهلة ، يتم تبادلهـا وتداولها بين الاذاعات العربية المختلفة ، فيتسنـى لسكان القطر الذين لا تبلغهم امواج اذاعة منها ان يتعرفوا الى احوال اخوانهم فى القطر الذى تنتمى اليه هذه الاذاعة او تلك . وقل الامر نفسه فى البرامج التلفزيونية التى باتت تستغرق جزءا لا يستهان به من حياة الانسان اليومية .

واما السينما والمسرح العربيان فشأنهما مختلف تماما عن شأن سائر فروع الاعلام . ذلك ان نشأتهما فى الوطن العربى — وعلى الاخص فى القطر المصرى — قد تمت فى زمن كانت فيه الامية هى السائدة ، بينما كان العلم وقفا على قلة قليلة من الناس . ولم يكن فى الامكان بالطبع المغامرة بنتاج سينمائى مفروض فيه ان يتوجه الى اوسع الجماهير ، بلغة لا تتداولها هذه الجماهير فى حياتها اليومية والعامة ، وذلك لامور لعل اهمها العامل الاقتصادى . فالمفترض فى الشريط السينمائى ان يعود بالربح والفائدة على المنتج والمخرج وصاحب الصالة ، او عدم تعريضهم للخسارة على الاقل . وبديهى ان بلوغ هذا الهدف لا يتأتى إلا عن طريق تأمين دخل محترم من شبابيك التذاكر بصالات العرض ، اى باقبال أكبر عدد من المشاهدين . وليس هؤلاء بالطبع سوى عامة الناس ، غير المتعلمين على الاغلب ، الذين لا يمكنهم أن يتفاعلوا بيسر ، وبشكل عفوى ، مع احداث من الحياة ، ونماذج من البشر يتحدثون بلغة تكاد تكون غريبة عنهم ، ولا سيما اذا أمعنت فى استخدام الاساليب السائدة فى تلك الايام . وهى اقرب ما تكون الى المحنطات .

وما يقال عن السينما ينطبق الى حد كبير على المسرح . فكلاهما يفترضان فى المشاهد ان يعيش ما يقدم اليه من صور ووقائع وكأنه احد ابطال الشريط السينمائى او المسرحية . ومن الطبيعى جدا الا يتيسر له ذلك عبر لغة كثيرا ما يقف عاجزا عن حل رموزها لانه لم يتلق قسطا من التعليم يعينه على ذلك . واذا حدث ان بعض الاقطار العربية يفتح صدره اليـوم للسينما والمسرح المنتجين باللهجة المصرية (القاهرية فى اغلب الاحيان) ، فذلك ناتج عن غزوهما اجزاء من الوطن العربى فى زمن مبكر ، واعتياد الناس رموز تلك اللهجة واستقرارها فى حوافظهم بالحدس والربط بينها وبين الحركات والانفعال المرافقة لها بادىء الامر ، ثم عن طريق اتضاح دلالاتها اكثر فأكثر بفعل التكرار. نقول ذلك مع التاكيد بان عددا من رموز اللهجة المصرية يبقى فى عداد الطلسمات بالنسبة الى غير ابناء القطر المصرى ، حتى اولئك الذين طالت الفتهم للسينمـا والمسرح المصريين .

واليوم ، وبعد أن زادت نسبة المتعلمين فى الوطن العربى (نرجو أن يكون اليوم الذى لا يبقى فيه أمىّ واحد على وجه الارض العربية قريبا) ، بات من الملح البحث عن عربية مشتركة للسينما والمسرح . ولكيلا يتبادر الى الاذهان ان هذه « العربية » المطلوبة لغة جديدة ، او مصطنعة ، نسارع الى القول انها ليست شيئا من ذلك على الاطلاق ، واننا اذ نقترحها فمستندين الى اكثر من دعامة من دعائم تراثنا الذى نعتز بسه .

فقد توارثنا عن الاجداد قولهم : « لكل مقام مقال » ، وقرأنا فى بعض كتب الادب واللغة والبلاغة انه ليس المقصود بـ « الاعراب » — وهى ظاهرة لا يمكن لاحد تجاهلها ، او المطالبة بالغائها ، تحت اى ستار ، لانها جزء لا يتجزأ من اللغة التى ورثناها معربة كابرا عن كابر — أن يؤمن للمخاطب فهم مراد المتكلم بصورة عامـة مطلقـة ، كمـا يطيب لبعض النحاة أن يفعلوا ، وانما تأمين هذا الفهم فى المواضع التى يخشى معها اللبس . وهاهو ذا ابن الاثير — وهو من هو فى اللغة والبيان — يقول فى كتابه « المثـل السائر » ان المتكلم لو قال للمخاطب : « أن تقـوم اقوم » ، ولم يحذف « الواو » من الفعلين ، او قال : « جاء زيد راكب » ، ولم ينوّن « زيد » تنوين الرفع، ولا « راكب » تنوين النصب ، او قال : « ما فى السماء قدر راحة سحاب » ، ولم يقم الاعراب فى أواخر الكلمات ، ولا سيما تنوين النصب فى « سحاب » ، لما استغلق المراد على المخاطب ، ولفهم القصد من الكلام . لكن المتكلم ان لم يقم الاعراب فى « زيد » بالرفع والنصب والجر ، وفى « احسن » بالبناء على الفتح وبالرفع ، فى الصيغ الثلاث : « ما احسـن زيد » التى تدل أولاها على نفى الاحسان عن زيد ، وثانيتها على التعجب من حسنه ، والثالثـة علـى التساؤل عن احسن ما فيه ، وقع اللبس ولم يتسن للمخاطب تمييز القصد .

وعليه نقول ان اللغة المطلوبة للسينما والمسرح العربيين ، تأمينا لتواصل العرب وتلاقح افكارهم وتعرفهم بعضهم الى بعض ، ينبغي ان تتوافر فيها المقومات التالية :

1 — ان « المقام » (في السينما والمسرح) مقام تفاعل مع احداث الحياة اليومية يعيشها بشر مثلنا نشاطرهم افراحهم وآلامهم ، وان « المقال » المطلوب له يجب ان يتجنب الحذلقة التي من شأنها ان تقيم حاجزا بين المتكلم (الممثل) وبين المخاطب (المشاهد) يمنع المشاركة الوجدانية ويقضي بالتالي على الهدف المنشود من العرض السينمائي او المسرحي وان يتحاشى كل لفظ غير مأنوس ولا متداول في الوقت الراهن ، وكل اسلوب لا يمت الى الواقع الحاضر بصلة . المطلوب باختصار « مقال » يحاكي العاميات الشائعة في الوطن العربي من حيث سهولتها واستجابتها الفورية للمواقف الانفعالية ، مع ابتعاده كل الابتعاد عن رثاثتها وعجزها عن اداء الرسالة الا الى نفر محدود من ابناء الامة .

2 — ان الاعتدال في اقامة الاعراب في اواخر الكلمات — الا في المواضع التي تسهل فيها حركة الاعراب النطق ، كما في الاضافة الى المعرفات بـ « ال » والمفردات المبدوءة بهمزة الوصل مثلا ، وهو ما يعرف بـ « منع التقاء الساكنين » — من شأنه المساعدة على رشاقة العبارة ، واختصار زمنها ، وهما امران مطلوبان في المقام الذي نحن بصدده ، مقام التفاعل الآني البعيد عن كل كد للذهن في البحث عن تسلسل الروابط اللغوية ، كما هي الحال في الادب المكتوب ..

3 — يجب ان ينصب الحرص على اقامة الاعراب داخل الكلمة للتمييز مثلا بين « اخرج » المعلوم وصنوه المجهول ، و « ينزل » من الثلاثي وصنوه من الرباعي ، و « مكرم » المبني للفاعل والآخر المبني للمفعول الخ . نظرا لما لهذا الاعراب الداخلي من أهمية في بيان المعاني المقصودة .

4 — يمكن ان تكون نبرة الملفوظ بديلا من الاعراب المتمثل في حركة آخر الكلمة . فما لا ريب فيه انه لا مجال للبس بين « ما احسن زيد » التي للتعجب من حسنه ، والاخرى التي هي للسؤال عن أحسن ما فيه ، اذا لفظت كل منهما كما ينبغي لها ان تلفظ. ثم ان اللغة لا تعدم وسيلة للتعبير عن نفي الاحسان عن زيد بغير صيغة « ما احسن زيد » ، وذلك بتقديم « زيد » هذا الى اول العبارة ، او باختيار اداة للنفي غير « ما » .

5 — ان من شأن الواقع الحي الناشىء عن الحركات والمواقف المرافقة للكلام الدائر ان يختصر كثيرا من عناصر العبارة ، ويختزل الصيغ الى ابسط الاشكال (كلمة او كلمتان احيانا) . فالاشارة الى شيء او مد اليد به يقوم بهما ممثل قبالة ممثل آخر يعنيان « خذه » من غير حاجة الى لفظ الفعل . كما ان نبرة الصوت المرافقة للفظ الكلمة الواحدة تدل دلالات متنوعة ، وتغني من جهة ثانية عن كلمات اخرى كان يجب ان تلازمها لو كان المقام غير المقام.

وغني عن البيان انه ينبغي ان تسبق مثل هذه التجربة (التي نرجو مخلصين الا ينظر اليها بعين الريبة ، والا تقابل بالانفعال والافكار المسبقة ، والتي لا تتنافى في اعتقادنا ونقاء الفصحى وبقاءها اللغة القومية الحية ما دمنا نحرص على تعليمها بالطرق السليمة لغة قراءة وكتابة كاملة الاعراب ، مستقيمة التركيب ، بل هي على العكس من ذلك تدعم الفصحى وتشد ازرها لانتزاعها حيزا رحبا من النشاط الفكري والابداعي من براثن اللهجات المحلية) ابحاث لغوية رصينة تكتنه اسرار العربية وتقف على خصائصها في موافقة مقتضى الحال ، مسترشدة بآراء اهل الاختصاص في شتى الميادين النفسانية والفنية والتقنية ، لتكامل الجهود ، وتؤتي التجربة اطيب الثمار والاكل . ولا ريب ان مثل هذه الابحاث كفيلة باحصاء كل صعوبة قد تخطر على بال ، وتعجز مثل هذه العجالة عن وصف الحل الناجع لها ، وقمينة بتذليل كل ما يعترض هذا الاقتراح من عقبات .

ثالثا — مشكلات اخرى :

لعل من تحصيل الحاصل القول ان الجهود الرامية الى توحيد العرب بتوحيد لغتهم اكثر من ان تحصى . كما ان الابحاث الدائرة في هذا الفلك اكثر من ان يحاط بها في دراسة عجلى كهذه الدراسة (3). ولكن السمة الغالبة على ما يعرف بـ « التعريب » هي محاولة الحد من فوضى المصطلحات العلمية والتقنية الناجمة عن نقل العرب ما جد في العصر الحديث ، وما يجد كل يوم بسرعة مذهلة ، من مكتشفات ومفاهيم في حقلي العلوم الصحيحة والانسانية ، والعمل على توحيد هذه المصطلحات لخلق

لغة علمية عربية يستوى فى فهم رموزها ودلالاتهـا القاصى والدانى من ابناء العروبة . وتلك جهـود مشكورة لعمر الحق أجزل الشكر . واذا كنا نلفت الانظار الى بعض المشكلات اللغوية بعيدا عن قضية « المصطلحات » ، فلاعتقادنا بمساس الحاجة اليها مساسها الى الابحاث الدائرة اليوم ، ولانها فى صميم « الوسائل التى تنتص التعريب ليصبـح مواكبـا لمتطلبات العصر والدور الذى يمكن ان يؤديه فى دعم الوحدة العربية » ، كما هو ملحوظ فى جردة الابحاث المطلوبة فى هذه الندوة .

ولعلنا لا نذيع سرا اذا اكدنا ان المصطلح الجديد لا تكتب له الحياة الا بالاستعمال والشيوع . وانه لكى يتم استعماله لا بد ان يتقبله المستعملون بقبول حسن . ولا يمكن أن يكون قبول ما لم يكن المصطلح محددا تحديدا دقيقا بثلاثة امور رئيسية هى :

— الجذر الذى منه اشتق او ارتجل ، والذى يتضمن الشحنة الدلالية الاساسية .

— الصيغة التى سكبتفيها مادة الجـذر . والتـى تنتقـل بالدلالة من المطلق العام الى المعين الخـاص .

— الزوائد التى قد تتعدى حدود الصيغة المألوفة لتزويد الدلالة بقدر جديد من التخصيص . ولا يتيسر ذلك الا اذا سبقته ابحاث تهدف الى تحقيق الامور التـاليـة :

1 — تحديد دلالة الالفاظ — ولا سيما فـى المجالات التى ثبتت الحاجة الى العناية الفائقة بها — بدراستها دراسة علمية دقيقة ، تعضدها الوسـائل التقنية والتكنولوجية الحديثة ، فى مختلف سياقاتهـا اللغوية . فلا وجود للدلالة فى المطلق ، ولا معنـى للفظة فى الفراغ ، وانما يتحدد معناها ، او معانيها وظلال تلك المعانى ، فى اطارها الطبيعى المتمثل فى سياق العبارة اولا ، ثم فى سياق الموضوع العـام الذى فيـه استخدمت .

2 — الوقوف على ما تطور من الدلالات ، وما احتفظ منها باطاره الثابت كليا او جزئيا ، بدراسة مختلف النصوص دراسة تاريخية تتناولها فى شطائر زمنية تتقارب او تتباعد تبعا لمنطلقات محددة تشكل عوامل تطور اجتماعى او فكرى او سياسى .

3 — استغلال الابحاث والدراسات المذكورة لوضع « معجم تاريخى » مؤيد بالشواهد والنصوص وشتى الاستعمالات عبر حقب زمنية معينة يأخذ بايدى طلاب العربية والمشتغلين بتنميتها واغنائها على كل الصعد ، ويساعدهم على اكتناه دقائق الدلالات ، ويبلغهم اهدافهم فى ابقاء لغتهم القومية حية وقادرة على مسايرة حاجات العصر ، والاستجابة لكل ابداع، باستخدام هذه اللغة استخداما صحيحا لا يترك مجالا لحيرة او لاحساس بالتردد او القصور او العجز

وتقودنا مشكلة المصطلح العلمى الى مشكلة اخرى لعلها اكبر واعقد ، وان كانت تحتجب أو تكاد وراء الحاح الاولى وبروزها باستمرار تحت ضغط تسارع الاكتشافات العالمية ، واحساس العـرب بضرورة اللحاق بركب الحضارة الانسانية الشاملة ، عنينا مشكلة النقول من لغة ، او لغات ، لها خصائصها التركيبية التى تختلف جزئيا او كليا عن خصائـص العربية ، والتى قد يؤدى عدم الوقوف عليها الى معضلات دلالية ، بل الى عكس الدلالة المرادة فى بعض الاحيان . وقد حدث مثل هذا الامر منذ مطلع النهضة الحديثة الاولى فتأثرت العربية بأساليب لا تمت الـى اساليبها بسبب . ولا نعنى بهذه الاساليب « التعابير المستعارة » من مثل (ذر الرماد فى العيـون) و (الاصطياد فى الماء العكر) الخ . فهى من قبيل المقترضات بين الامم التى بلغت مستويات متقاربة من الرقى الفكرى والحضارى ، واتسعت لغاتها ورقيت تبعا لذلك ، وانما نعنى طرائق نظم الكلام التى تختلف من لغة الى لغة ، والتى يفضى الجهل بها الى خلل فى بلوغ الرسالة الى المرسل اليه لاختلال « الراموز » المتواضع عليه تلقائيا بين ابناء اللغة الواحدة .

وان المطالع اليوم للنتاج العربى فى الحقول التى ذكرناها آنفا يكاد يحس بالغربة ازاء « اللغة » التى بها كتب معظم هذا النتاج ، لا لجهله بالمصطلحـات الجديدة وحسب ، وانما للاختلال الذى اشرنا اليـه اعلاه ، والذى يتمثل فى نقل الصيغ الاجنبية بعجرها وبجرها ، وبغض النظر عن مطابقتها او عدم مطابقتها للصيغ العربية . واذا كان للعلوم الصحيحة والمعادلات الرياضية والفيزيائية والكيميائية لغتها واساليبها التى هى اقرب الى اساليب البرقيات ولغتها ، فان العلوم الانسانية تحتاج الى دراية باسرار اللغة لا تقل عن الدراية المطلوبة فى مجال الادب نفسه . ولذا فانه لا يكفى ان يكون الناهد للكتابة فى فرع من فروع هذه العلوم باللغة العربية متضلعا من المادة التى تدور عليها دراسته ، بل ينبغى ان يكون قادرا على نقل دقائق هذه المادة بامانة تامة الى القارىء العربى .

ولا تتوفر له هذه الامانة التى يحرص دون ريب على التحلى بها الا اذا كان يملك اولى ادواتها ، عنينا التعبير الصحيح الميسور فهمه لكل متعلم طامع فى زيادة نفسه علما ومعرفة .

ولعل الطريق الاوحد لبلوغ هذا الهدف هو قيام ابحاث علمية دقيقة تتناول بالدرس والتمحيص خصائص العربية فى ضوء « علم اساليب اللغة » القائم على ميدانين اساسيين :

1 — « الابلاغية » التى تتضمن كل ما يتجاوز حد الكلام الموضوعى والذهنى ، وحدود نقل الوقائع والافكار ، باللجوء الى عوامل تعبيرية معينة ، منها ابراز عنصر من عناصر الكلام بالتقديم او التأخير ، وتساوق العبارة ، وجرسها ، ونبرة الملفوظ ، واستخدام القيم العاطفية ، والاخرى التى تستدعى الى الذهن صورا معينة ، كالاستعارة من سجل ادبى خالد ، او من الامثال السائرة ، او من الادب الشعبى .

2 — الخيار الاسلوبى المتمثل فى اباحة اللغة صيغتين او اكثر للتعبير عن الفكرة الواحدة ، وتمكين المستعمل من انتقاء انسب تلك الصيغ لنقل فكرته الى المخاطب واشدها حفولا باللطائف والدقائق .

ومن شان هذه الدراسات ان تتيح الوقوف على عدة امور اهمها :

1 — احصاء القيم الابلاغية والاخرى المستدعية للصور داخل عنصر اسلوبى معين فى حقب زمنية شتى (الصيغ البلاغية المتبعة مثلا فى الدراسات الاسلوبية التقليدية)

2 — ما قد يكون أصاب الصيغ العربية على مر العصور من تطور ، هذا التطور الذى تكاد تطمس معالمه الدراسات النحوية التقليدية المتمحورة حول اجازة النحويين او منعهم صيغة من الصيغ ، او ترجحهم بين الاجازة والمنع فى ظاهرة من الظواهر التركيبية ، كالفصل مثلا بين المضاف والمضاف اليه بعنصر كلامى .

3 — الجملة العربية والمواضع التى لا يجوز فيها التصرف بطريقة نظم عناصرها ، لاخلال هذا التصرف بالسياق ، واعاقة الوقوف على المراد منه ، لتعثر الرسالة فى الوصول الى المرسل اليه . والمقصود من ذلك كله تحاشى الاستعمالات الغريبة التى قد ترشح الى العربية بفعل النقول من اللغات الاجنبية، او بسلطان من اساليب تلك اللغات على المتمرس العربى بعلم من العلوم المكتوبة بها حين يطمح الى الكتابة فى هذا العلم بلغته القومية التى يفترض فيها ان تبلغ الرسالة نفسها الى كل فرد من افراد الامة ، بغض النظر عن معرفته او جهله باللغات الاخرى .

4 — المواضع التى يساعد التصرف فيها على تسريع وصول الرسالة الى جميع المرسل اليهم بالنسبة نفسها ، وتمكينهم بالتالى من التمتع بخيراتها ، وتوسيع دائرة معرفتهم وثقافتهم بثمارها الشهية الجديدة .

ولا مراء فى ان هذه الامور وغيرها تساعد على التعريب والتوحيد اللغوى اللذين نطمح جميعا لجعلهما الخطوة الاولى فى مسيرة الوحدة العربية الكبرى .

هوامش البحث :

(*) بحث القى فى ندوة « التعريب ودوره فى تدعيم الوجود العربى والوحدة العربية » التى نظمها (مركز دراسات الوحدة العربية) فى تونس ، 23 — 26 تشرين الثانى (نوفمبر) 1981 .

1) استفدنا كثيرا من عناصر هذه الفترة من كتاب : س . او لمان وف . ف نارتبرغ ، **مشكلات الالسنية وطرقها** (باريس : 1969) .

2) استندنا بعض الآراء الواردة فى هذه الفترة من البحث من دراسة : عبد الرزاق جعفر ، **ادب الاطفال** (دمشق : منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1979) .

3) من المفيد جدا فى هذا الصدد الرجوع الى دراسة : محمد المنجى الصيادى ، **التعريب والتنسيق فى الوطن العربى** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1980) .